الإيمان وحده *Sola Fidei*
المبدأ الأساسي للإصلاح الإنجيلي

القس يوسف سمير

ظهرت هذه العبارة: "بالإيمان وحده" أو (Sola Fidei باللاتينية) في تاريخ حركة الإصلاح الإنجيلي عندما أضاف مارتن لوثر كلمة "وحده" إلى نص رومية 3: 28 حيث يقول الرسول بولس: "إِذاً نَحْسِبُ أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَبَرَّرُ بِالإِيمَانِ (وحده: إضافة لوثر) بِدُونِ أَعْمَالِ النَّامُوسِ." ويمكننا أن نتخيل بسهولة الهجوم الشديد الذي تعرض له الراهب الأوغسطيني الثائر من الكنيسة في عصره نتيجة لتجروئه على إضافة هذه الكلمة للنص الكتابي، لكن انبرى إرازموس للدفاع عنه مبرراً ذلك الأمر بأن الترجمة لا تعارض الاتجاه الكتابي واللاهوتي الذي ينادي به الرسول بولس وبقية كتبة الوحي بأن نوال الخلاص والحياة الأبدية لا يكون إلا بواسطة الإيمان، والإيمان فقط.[1] ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد إذ قام مجمع ترنت المنعقد في السنوات من 1545-1563، الذي يُعد في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية واحداً من دعائم حركة الإصلاح المضاد، بتوجيه هجوم شديد لترجمة مارتن لوثر تلك وكل ما تفترضه، وكان نص رأي المجمع كالتالي:

> "إذا قال أحدٌ إن الإيمان الذي يُبرّر ليس سوى الثّقة في الرحمة الإلهية التي تمحو الخطايا بفضل المسيح، أو إننا نبرَّر بهذه الثقة وحدها: فليكن محروماً."
> (1562- ق. 12)[2]

وعلى شاكلة كل الأفكار والفلسفات والحركات التي تظهر في سياق الحضارات الإنسانية، فمبدأ "الإيمان وحده" في حقبة الإصلاح الإنجيلي ظهر وأخذ دفعته الكبيرة بسبب وجود وانتشار ثلاث أفكار لاهوتية غير منضبطة أدت إلى تشوه النظرة إلى الإيمان الكتابي واختلاط أمره على الكثيرين من البسطاء. وكانت تلك الأفكار الثلاثة هي:

(1) البلاجية Pelagianism التي ظهرت في عصر أوغسطينوس (في أواخر القرن الرابع الميلادي وبدايات القرن الخامس)، والتي نادت بقدرة الإنسان على اتخاذ الخطوات الأولى نحو الخلاص بمجهوده البشري الخاص، بمعزل عن نعمة الله الخاصة له وذلك على أساس فكرة لاهوتية مغلوطة تنادي بأن الإنسان يولد طاهراً لا أثر للخطية في نفسه على الإطلاق [3] وقد تبنى أرمينيوس وجون وسلي وإرازموس في عصر الإصلاح تلك الفكرة. وقد عبر إرازموس عن تلك القناعة بقوله: "إن الإرادة الحرة هي القوة لوضع النفس في دائرة النعمة."
وقد اعترض أوغسطينوس بقوة عليها مؤكداً ضرورة تواجد نعمة الله الداخلية لأجل خلاص الإنسان وأن خلاصه من قصاص الخطية لا يكون إلا بالإيمان الحقيقي بكفارة المسيح، وأن تأهيله لعمل الصلاح لا يكون إلا بعمل الروح القدس في نفسه.[4]

(2) شبه البلاجية Semi Pelagianism وهي الفكرة التي ظهرت لتجمع بين فكرة أوغسطينوس وبلاجيوس، فنادت باشتراك إرادة الإنسان ونعمة الله في عملية الخلاص. ويتلخص هذا الاتجاه الذي تبناه بعض من أتباع وتلاميذ بلاجيوس [5] في أن خطية آدم قد أثرت في عموم الإنسانية وأنها وإن لم تسلب البشر القدرة على عمل وصايا الله، بيد أنها أصابتهم بالعجز الكامل عن إتمامها دون معونة إلهية تأتي لهم من السماء. وبالتالي فإن الخلاص يبدأ بمحاولة الإنسان

---

1 F. R. Harm, "Sola fidianism", in Evangelical Dictionary of Theology, (ed.) Walter E. Elwell, Michigan. Baker Books, 1996, p. 1032.

2 Ibidem.

٣ عوض سمعان، الإيمان والأعمال، دار الثقافة، 1982، ص 177.

٤ المرجع السابق، ص 178.

٥ المرجع السابق، ص 178، 179.

الاتقاء بمجهوده الذاتي فوق عجزه الإنساني على أن يمده الله بالمساعدة بعد ذلك لتجاوز هذا العجز بصورة شاملة. ولا شك في أن هذا المنحى اللاهوتي وسابقه يتعارضان بصورة كاملة مع تأكيد الكتاب المقدس على عجز الإنسان الكامل واحتياجه للمعونة السماوية الكاملة لإتمام خلاصه الذي يعجز هو عن الوصول إليه بصورة تامة. وهو المبدأ الذي صاغه المصلحون الأوائل تحت عنوان: "الفساد الكامل" *Total Depravity* الذي يلخصه اللاهوتي جون بايبر John Piper في العبارات التالية: "... إن الفساد الكامل يعني أن تمردنا ضد الله هو تمرد كامل، وكل ما نعمله ونحن في هذه الحالة هو خطية. ونحن نعجز تماماً عن أن نُخضع أنفسنا لله أو نصلح أنفسنا، ولهذا فنحن نستحق العقاب الأبدي."[٦]

(3) التآزرية Synergism وهي كلمة يونانية تعني (العمل معاً) وهي تعبر عن جوهر الفكرة التي تقول بأن الإلهي والبشري يعملان معاً من أجل تجديد الإنسان الساقط المُحتاج للخلاص. وقد ظهرت هذه الحركة كفكرة مضادة للإصلاح اللوثري في القرن الخامس عشر، وقد عبر ميلانكتون عن هذه الفكرة بقوله:

> في التجديد هنالك ثلاثة عوامل تشترك معاً: الكلمة، والروح القدس، والإرادة التي لا تكون سلبية تماماً، لكنها تقاوم ضعفها... فالله يجذب، لكنه يجذب فقط من يريد... فالإرادة ليست تمثالاً أصم، وهذه المشاعر الروحية لا تتأتى لتمثال أصم.[٧]

وهكذا جاء مبدأ "الإيمان وحده" ليواجه ويقاوم كل هذه الاتجاهات التي حاولت وضع الإرادة الإنسانية في موقف الفاعل الرئيسي والمحرك الأساسي لعجلة الخلاص بالاشتراك مع نعمة الله.

التفاعل بين اللاهوت والتاريخ

من الأهمية بمكان ونحن بصدد دراسة تاريخية ومغزى مبدأ "الإيمان وحده" أن نتوقف برهة للتركيز على ذلك التفاعل الذي نستطيع أن نلحظه في كل العصور بين اللاهوت والواقع، أياً كان هذا الواقع، سواء أكان واقعاً كنسياً أم اجتماعياً أم سياسياً أو غير ذلك من جوانب الواقع وكيفية تفاعل الفكر اللاهوتي معها.

يُبرز ر. أ. فينليسون R. A. Finlayson في كتابه "قصة اللاهوت" *The Story of Theology*[٨] هذه الفكرة بصورة واضحة في تتبعه لقصة تفاعل الفكر اللاهوتي مع أحداث العصر بصورة قوية منذ أقدم عصور المسيحية. ونكتفي هنا بتتبع مسار تطور الفكر اللاهوتي نتيجةً لتراكم اجتهاد الكنيسة في التعبير عن إيمانها من عصر إلى عصر.

نتيجةً لاعتراف الكنيسة منذ الوهلة الأولى لميلادها بألوهية المسيح، واجهت الكنيسة معضلة التوفيق بين هذا الأمر وإيمان الكنيسة بإله واحد، وبالتالي بدأت المحاولات للتعبير عن فكرة التثليث في المسيحية، ومن الواضح أن عقيدة التثليث لم تتبلور نتيجةً لمجادلات أو تنظيرات فلسفية لكن كمحصلة لتفكر وتأمل الكنيسة في معطيات الوحي على صفحات الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، وخاصة تلك المختصة بشخص المسيح وبعلاقة الله بعالم البشر من خلال روحه القدوس. وكان أكثر المساهمين في بلورة تلك العقيدة هو ترتليانوس المدافع عن الإيمان المسيحي وهو الذي أبرز فكرة وحدة أقانيم اللاهوت الثلاثة رغم تمايزهم الواحد عن الآخر، ومع كونهم متمايزين إلا أنهم إله واحد لا يمكن تقسيمه.

---

٦ جون بايبر، المبادىء الكالفينية الخمسة: نحو اختبار أعمق لنعمة الله، ترجمة: حمدي سعد، دار الفكر الإنجيلي، 2017، ص 35، 36.

7 C. G. Fry, "Synergism" in *Evangelical Dictionary of Theology*, (ed.) Walter E. Elwell, Michigan. Baker Books, 1996, p. 1063.

8 R. A. Finlayson, *The Story of Theology*, London, The Tyndale Press, 1969, p. 19- 47.

مع تأكيد الكنيسة في شهادتها واعترافها بيسوع المسيح بصفته ابن الله، برزت الحاجة للتشديد على حقيقة ألوهيته في مواجهة المحاولات التي جنحت إلى إبراز ناسوته على حساب لاهوته في تأثر واضح بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة. وهذا ما فعله أثناسيوس في مواجهته للهرطقة الأريوسية بما تحويه من أفكار غنوسية حاولت أن تجعل من المسيح نصف إله (Demi God). وقد عبر أثناسيوس عن ألوهية المسيح في كلمات تصويرية بارعة يقول فيها لمعاصريه:

> وهذا ما يمكن أن نفهمه من مثال صورة الإمبراطور، حيث يوجد شكل الإمبرطور وهيئته في الصورة، والهيئة التي في الصورة هي التي في الإمبراطور، لأن ملامح الإمبراطور في الصورة، هي مثله تماماً حتى أن من ينظر إلى الصورة يرى الإمبراطور فيها، وأيضاً من يرى الإمبراطور، يدرك أنه هو نفسه الذي في الصورة. وبسبب عدم اختلاف الملامح، فإن من يريد أن يرى الإمبراطور بعد أن رأى الصورة، يمكن أن تقول له الصورة «أنا والإمبراطور واحد»، لأني أنا في الإمبراطور، والإمبراطور فيَّ... إذن بما أن الابن أيضاً هو صورة الآب فينبغي أن يكون مفهوماً بالضرورة أن ألوهية الآب وذاته هي كيان الابن وهذا هو ما قيل عنه «الذي إذ كان في صورة الله» (فيلبي 2: 6)، و«الآب فيَّ» (يو 14: 10)"[٩]

مع تطور التعبير عن عقيدة التثليث الكتابية، سرعان ما بدأت الأسئلة تُثار حول طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية، وبالتالي فقد ظهرت في القرن الرابع المحاولات العديدة للتعبير عن كل ما يختص بطبيعتي المسيح وأساليب التعبير عنهما وقد عبَّرَتْ المجامع الكنسية الأولى المتتالية عن هذه العلاقة بين الطبيعتين (القسطنطينية في عام 382، أفسس في عام 428، خلقيدونية في عام 451).

بعد التركيز على كل ما هو مرتبط بالله، بدأ التركيز على التعبير عن علاقةِ الله بالإنسان، وخاصةً في موضوع الخلاص، وبدأت أولى التنبيرات على دور الإنسان في مقابل دورِ الله في الخلاص. وكانت هذه المناقشة في أوجها أثناء عصر أوغسطينوس وما تلاه. وقد لخص أوغسطينوس كل فكره اللاهوتي عن سقوط الإنسان وعجزه الكامل واحتياجه الشديد للنعمة الإلهية في صلاته التي قال فيها: "أنعم علينا بما توصي به، وأوصنا بما تريده."

واستكمالاً لدور أوغسطينوس، ساهم القديس أنسلم (1033- 1109) في إبراز ملامح عقيدة الفداء في القرون الوسطى، وقد كان هو أول من ناقش فكرة ترضية المسيح عن الخطية ليقدم خلاصاً مستحقاً لشعبه على أساس عمله الفدائي. وفي هذا السياق يمكننا وضع مبدأ "الإيمان وحده" الذي ظهر في وجه الردة اللاهوتية التي ظهرت في الكنيسة الرومانية، وبعض الاتجاهات التي ظهرت خلال الإرهاصات الإنجيلية الأولى، كما سنرى في ثنايا هذه الدراسة.

ويأتي نتيجةً لذلك الدور الذي قام به جون كالڤن في التعبير الواضح عن سلطان الكلمة التي تعلن بوضوح مبدأ الإيمان وحده في مقابل الأعمال والجهود الطقسية التي نادت بها الكنيسة التقليدية في ذلك العصر. وهو ما يعني أن مشروع كالڤن اللاهوتي كان إلى حد كبير مرتبطاً بالتنبير على سلطان الكلمة التي منها نستقي كل الأفكار اللاهوتية التي تشكل العقيدة المسيحية ودور الروح القدس في فهم هذه الكلمة. وكانت مناداة كالڤن هي أن الكلمة والروح هما اللذان

---

٩ القديس أثناسيوس الرسولي، المقالة الثالثة ضد الأريوسيين، ترجمة مجدي وهبة ونصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أنطونيوس، مركز دراسات الآباء، نوفمبر 1994، ص 16، 17.

يمثلان سلطة الإعلان الإلهي. فالكلمة هي الوحي الإلهي بينما الروح هو الموحي بهذه الكلمة. وهما معاً اللذان يقنعان النفس البشرية بسلطان الإعلان على الفكر والسلوك معاً.

نخلص من هذا الاستعراض التاريخي أن الله لم يترك نفسه بلا شاهد في كل عصر من العصور، فقد أقام الله في كل مرحلة ومع كل احتياج شخصاً أو أشخاصاً وضعوا على عاتقهم مهمة التعبير عن الفكر اللاهوتي وصياغة بنود الإيمان التي تخاطب العصر. (ترتليانوس والتثليث، أثناسيوس والكريستولوجي، أوغسطينوس والسوتريولوجي، أنسلم وعقيدة الفداء، لوثر وعقيدة التبرير بالإيمان، كالڤن وعقيدة الوحي...)

مارتن لوثر وظهور فكرة التبرير بالإيمان وحده

كان السياق التاريخي والمجتمعي والديني في العصور الوسطى بكل ما مَثَّله من مناخ سيء غير صحي هو الذي مهد بقوة وقاد في النهاية لاشتعال أول شرارات الإصلاح الإنجيلي بكل التنبيرات التي أكد عليها هذا الإصلاح. فقد شهد هذا العصر انحرافاً شديداً من الكنيسة بعيداً عن الكثير من العقائد الكتابية الأساسية ومن أهمها عقيدة التبرير التي كانت واحدة من الثوابت الإيمانية الأساسية في الكنيسة منذ أقدم عصور المسيحية. ففي حقيقة الأمر، لم يكن لوثر أول من اكتشف أو نادى بعقيدة التبرير بالإيمان وكأنها بدعة في تاريخ الكنيسة لكن سبقه في المناداة بها الكثيرون من آباء الكنيسة ولاهوتييها مثل إكليمندس الروماني الذي يقول:

> إننا إذ نحن مدعوون بمشيئةِ الله في المسيح يسوع، فإننا لا نتبرر بواسطة ذواتنا أو حكمتنا أو فطنتنا أو طُهْر أعمالنا التي قمنا بها بقلوب مقدسة، لكن بواسطة الإيمان، الإيمان الذي به يبررُّ الله القدير كل ذي جسد.[١٠]

والقديس أوغسطينوس الذي يقول:

> لا يخلص الناس بالأعمال الصالحة أو بالتصميم الحر لإرادتهم الشخصية، لكن بنعمةِ الله من خلال الإيمان... والإنسان الخاطىء يحتاج إلى وسيط وهذا الوسيط هو يسوع يسوع المسيح...[١١]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكنيسة الكاثوليكية كان لها نظام لاهوتي متكامل في قضية التبرير والخلاص يجب الالتفات إليه في عجالة. فقد كانت كنيسة روما تنادي لمدة 800 سنة تقريباً بضرورة الأعمال البشرية قبل وبعد التبرير. فقبل التبرير هنالك إعداد ضروري يشمل، بالإضافة للإيمان، الخوف من العدل الإلهي، والرجاء في رحمةِ الله من أجل استحقاقات المسيح، والابتداء في محبةِ الله، وكراهية ومعافاة الخطية، وقبول المعمودية وبداية الحياة الجديدة. وكانت كل هذه الأعمال والاستعدادات الروحية يُشار إليها بالمصطلح: *meritum congrui*.[١٢] ويشير أليستر ماجراث Alister McGrath إلى أن هذه النوعية من الاستحقاقات، بحسب الفكر اللاهوتي السائد وقتذاك، كانت بصورةٍ ما ضعيفة لأنها تسبق الحصول على النعمة، إلا أنها كانت تحمل قيمة وتأثيراً ويضعها الله في حسبانه.[١٣]

10 Finlayson, Op. cit, p. 42, 43.

11 Kenneth Howes, *The "Solas" of the Reformation, Table Talk*, Volume 13, Number 4, November 2006.

12 Ludwig Ott, *Fundamentals of Catholic Dogma*, Fourth Edition, James Bastible, tr. (Rockford, IL: Tan Books and Publishers, Inc., 1960), 252-253, quoted in Kenneth Howes, The "Solas" of the Reformation.

13 Alister E. McGrath, *Luther's Theology of the Cross: Martin Luther's Theological Breakthrough*, Blackwell Publishing Ltd, 2011, p. 169.

مع النعمة المبرِّرة، تتجدد روح الإنسان ويصير المسيحي شريكاً للطبيعة الإلهية، وبالتالي يبدأ في القيام بالأعمال الصالحة التي يُشار إليها بالمصطلح *meritum condigni*[١٤] وهذه الأعمال تهيىء الإنسان لنوال المكافأة السماوية والحصول على الحياة الأبدية، وكانت تلك النوعية من الاستحقاقات لها قيمة أكبر لأنها جاءت بعد الإيمان بالمسيح. ولكن بسبب المبالغة في تقدير قيمة وتأثير تلك الأعمال وربطها بالحصول على الحياة الأبدية، صارت مع مرور الوقت مقدِّمة لعقيدة المطهر/ زوائد القديسين التي لعبت دوراً هاماً في انطلاق الشرارة الأولى للإصلاح الإنجيلي وأفرد لها مارتن لوثر جزءاً كبيراً من البنود ال 95 الشهيرة.

كانت الفكرة الحاكمة في ذلك العصر هي "كيفية التخلص من عبء الخطية والإثم"، وربما كان السبب وراء هذا الأمر هو دور الكنيسة الكاثوليكية والبابوية في تعميق هذا الإحساس لدى الشعب حتى يتسنى للقيادة الدينية السيطرة عليه ضميرياً ومادياً. فمن الثابت تاريخياً أن البابا في روما لجأ إلى ابتداع فكرة صكوك الغفران للحصول على دعم مادي مناسب لبناء كاتدرائية القديس بطرس الجديدة حيث اقترح عليه أحد الكرادلة بيع صكوك الغفران لتوفير الأموال اللازمة لذلك. وبدأ الاعتقاد يسود بأن الحصول على تلك الصكوك يضمن غفران خطايا الماضي والحاضر والمستقبل، بل يتعدى تأثيرها الأحياء إلى المنتقلين كذلك حيث يمكن الانتفاع بالأعمال الصالحة الزائدة التي يعملها البعض لتُحسب في صالح أولئك الذي يصلون عذاب المطهر لتقليل مدة وجودهم هناك، وكانت صكوك الغفران هي وسيلة نقل الأعمال الصالحة من حساب شخص إلى شخص آخر.[١٥] ولم يتوقف الأمر عند الانحراف الفكري اللاهوتي فقط، لكنه تعدى إلى مزالق السياسة ودهاليز الصراع على السلطة. وفي هذا السياق يذكر رولاند بينتون Roland Bainton قصة أخرى عن بداية ظهور صكوك الغفران حيث استولى ألبرت الذي من برندنبرج Albert of Brandenburg على أبروشيتين كمطران لهما مع أنه لم يكن قد بلغ العمر القانوني للحصول على هذا المنصب، وأراد ألبرت أن يستولي على وظيفة ثالثة، فوافق البابا على شرط أن يقدم ألبرت اثنتى عشر ألف قطعة عملة ذهبية للرسل الاثني عشر، فرفض ألبرت قائلاً إنه لن يدفع إلا سبعة آلاف قطعة ذهبية بحسب عدد الخطايا السبعة المميتة، ووصل الاتفاق أخيراً إلى عشرة آلاف قطعة ذهبية! ولم يكن ألبرت يملك هذا المبلغ فوافق البابا أن يقوم ألبرت ببيع صكوك الغفران للحصول على المال اللازم، على أن يوَرِّد نصف المبلغ المجموع للبابا لإكمال بناء كاتدرائية القديس بطرس.[١٦]

كذلك فإن المجتمع الأوروبي في القرون الوسطى، مع طول سنوات الجهل والظلمة التي أحاطت بالكنيسة بكثافة، نشأ على الخوف من الله وعقابه، والتركيز على فظاعة هذا الغضب من جهة، ومن جهة أخرى على فظاعة الدينونة التي تنتظر المسيحيين في المطهر وجهنم، وبالتالي كان الشاغل الأكبر للناس في ذلك الوقت هو كيفية اكتساب رضاء الله بكل الطرق (القداسات، صكوك الغفران، تعذيب النفس وكان أشهر مظاهره السُّلَّم ذي الثمانية والعشرين درجة في روما Scala Sancta[١٧]/ زوائد القديسين...).

---

14 Ott, Op. cit., p. 256, 257.

١٥ عبد المسيح اسطفانوس، الإنجيليون: أسماء ومفاهيم، إصدارات مركز مسيحية الشرق الأوسط، كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة، 2014، ص 41، 42.

١٦ رولاند بينتون، مواقف من تاريخ الكنيسة، ترجمة عبد النور ميخائيل، دار الثقافة، 1978، ص 108.

١٧ يصف أ. موريسون هذا السلم بقوله إنه: "كان مكوناًمن 28 درجة فوق كل منها مسامير مدببة واعتقد الكاثوليك أن ارتقاءالإنسان على هذا السلم هو أكبر عمل ديني يمكن أن يقوم به. وزعموا أن ذلك يخلق في الإنسان طبيعة جديدة سداها البر ولحمتها القداسة وأنها تأكيد لغفران الخطايا. حتى أن مئات الألوف من الناس من مختلف أنحاء العالم صعدوا هذا الدرج على ركبهم. ولقد وعد البابا «ليو الرابع» في القرن التاسع أن يهب غفراناً للخطايا مدة تسع سنوات عن كل درجة يصعدها الإنسان من هذا السلم على ركبتيه، بشرط أن يردد على كل درجة صلوات معينة." (أ. موريسون، حياة لوثر زعيم الإصلاح، ترجمة باقي صدقة، دار الثقافة المسيحية، 1977، ص 31).

لم يكن مارتن لوثر بالطبع استثناءً من هذا المناخ. فقد ولد في عام 1483 وذهب إلى المدرسة ثم الجامعة، وظل طوال سني دراسته يغمره اضطراب روحي عميق واستولى عليه شبح الخوف الرهيب من غضبِ الله الذي تجمَّع لينصب فوق رأسه، وتملَّكه شعور عنيف بأن الله سوف يصب عليه جام غضبه وكان دائم الخوف من أن يأتي إليه الموت فجأة فيخسر نفسه خسراناً أبدياً. وتقوَّى لديه هذا الشعور عندما رأى أحد أصدقائه يموت بسبب صاعقة جوية داهمته. يصف القس منيس عبد النور تلك الفترة المأساوية من حياة لوثر بقوله:

"كان مارتن لوثر كثير التساؤل فيما يختص بالموت. لاحقته فكرة الموت في أماكن كثيرة وسيطرت على شعوره وضميره. فلقد مات واحد من أصدقائه بمرض خطير، ثم قُتِلَ صديق آخر في ظروف غامضة، فأخذ مارتن لوثر يتساءل: ماذا كان يحدث لو كنت واحداً من هذين الصديقين اللذين لاقيا وجه الله؟ وبعد عيد القيامة في سنة 1503 بيومين كان مارتن لوثر في طريقه مع صديق له إلى بيت والده في مانسفيلد، فظهرت فجأة على الطريق أمامه حفرة حاول أن يتخطاها ولكنه سقط فيها وجُرح جرحاً عميقاً وحمله صديقه، ولكن مارتن أُصيب بنزف فقد فيه كمية كبيرة من الدم. في تلك اللحظة المخيفة أخذ مارتن لوثر يتساءل: ما هو مصيري لو أنني الآن لاقيت وجه ربي؟"[١٨]

وازداد الأمر سوءاً، خاصةً عندما حدث وباء في إحدى القرى الألمانية وتفشى الطاعون فيها وانتقل لغيرها من المدن، ومات الكثيرون بسببه، فازدادت حالة لوثر النفسية سوءاً وتدهوراً. عندئذٍ قرر أن يأخذ إجازة للذهاب إلى أسرته وفي رحلة العودة صادفته عاصفة شديدة كادت أن تودي بحياته،[١٩] وتيقن لوثر أن هذا صوت الله له. بسبب تلك الحوادث، ونتيجة لرغبته الشديدة في خلاص نفسه، وبسبب الجهل الروحي الشديد آنذاك وسيطرة الكنيسة على العقول، فقد رأى لوثر أن أسلم طريقة هي الابتعاد بقدر الإمكان عن الحياة الدنيوية والانغماس في كل ما هو روحي، وبالتالي كان قراره بالانضمام إلى الرهبنة الأوغسطينية. وبالفعل التحق لوثر بالرهبنة الأوغسطينية في مدينة إرفرث الألمانية وسِيمَ كاهناً في 4 أبريل 1507.[٢٠]

لكن على الرغم من هذه الخطوة العملاقة في حياة لوثر والتزامه الشديد بجوانب الحياة التعبدية والسلوكية في الدير وتعبيره هو بنفسه عن ذلك حيث كان يقول: "إني راهب صالح، وإذا كان لراهب صالح أن يدخل السماء نتيجة لرهبانيته، فهو أنا"، [٢١] إلا أن كل ما كان يغمر كيانه وعقله هو الشعور بنجاسته وعدم استحقاقه أو أهليته لأن يكون مقبولاً في نظر الله، وعَبَّرَ عن ذلك بقوله: "أي أعمال صالحة تصدر عن مثل قلبي، وكيف أستطيع الوقوف أمام الديان بأعمال نجسة من مصدر نجس؟" وأُرسِلَ لوثر في مهمة لمقابلة البابا في روما، وظن أن هذه الزيارة سيكون لها أثر طيب على حياته الروحية لأنه ذاهب إلى عاصمة المسيحية، حيث كان من المنتظر أن يرى كل جوانب التعفف والتقوى، لكن هاله ما رأى من شر وفسق وفجور، حتى إن تعليقه على تلك الزيارة كان: "إن أسس روما مبنية في الجحيم." [٢٢] وفي أثناء تلك الزيارة، قرر

---

١٨ منيس عبد النور، التبرير بالإيمان، مجلة الهدى، العدد 864، السنة 74، فبراير 1984، ص 9.

١٩ يرى الكثيرون أن تلك الحادثة التي كادت تودي بحياة لوثر ونجاته من صاعقة جوية أوشكت أن تصيبه كانت هي السبب الرئيسي وراء قراره بالالتحاق بالرهبنة حتى أنه في واحد من خطاباته بتاريخ 16 أكتوبر 1519 كتب يقول بأن البرق هو الذي حدد له مستقبله. (حنا جرجس الخضري، مارتن لوثر، دار الثقافة، 1983، ص 36.)

٢٠ المرجع السابق، ص 37.

٢١ جون ستوت، المسيح الذي لا مثيل له، ترجمة نكلس نسيم، دار النشر الأسقفية، 2010، ص 119.

٢٢ أ. موريسون، مرجع سابق، ص 30.

لوثر أن يصعد السُّلَّم الشهير على ركبتيه مردداً الصلاة الربانية عند كل درجة من درجات السُّلَّم ملتمسًا الغفران الإلهي، فلم يشعر بأي تحسن في حالته الروحية. ويصف الدكتور القس فايز فارس تلك اللحظة التاريخية فيقول:

> وأمام كنيسة روما كان هناك السُّلَّم المقدس المعروف بسُّلَّم بيلاطس، بدرجاته الثماني والعشرين... وقد صعد لوثر هذه الدرجات، وقال عن ذلك فيما بعد: «لقد أردت أن أُخَلِّص جدي من المطهر، وصعدت سُلَّم بيلاطس، وكنت أتلو على كل درجة الصلاة الربانية، لكن عند وصولي إلى النهاية تساءلت في نفسي: ومن يعرف إذا كان هذا الأمر حقيقة؟»"[٢٣]

ويقول التقليد التاريخي إن لوثر في هذه اللحظة استمع لصوت يقول له: "أما البار فبإيمانه يحيا"، وبغض النظر عن مدى صحة هذه الرواية إلا أن الحقيقة المؤكدة هي أنه في عام 1503 توصل لوثر إلى ما يسميه توماس كارليل Thomas Carlyle "أكثر اكتشافاته المباركة"، ألا وهو اكتشافه لنسخة لاتينية من الكتاب المقدس انكب على دراستها، وأطال دراسة كتابات الرسول بولس رغم تجنبه لها لوقت طويل بسبب حديث الرسول في موضوعات كانت بالنسبة له مخيفة مثل البر والدينونة. وكانت رسالتا رومية وغلاطية أكثر رسالتين قام لوثر بدراستهما وكانتا الباعث الرئيسي وراء تأجج فكرة الإصلاح الإنجيلي في ذهنه وتعميق حقيقة التبرير بالإيمان وحده.

ولا يمكن أبداً إنكار أن فكرة التبرير بالإيمان لم تكن تلح على ذهن لوثر وحده، لكن كانت تملأ عقول الكثيرين من معاصريه، ومنهم على سبيل المثال جون ستوبتز Johann Stauptiz النائب العام للرهبنة الأوغسطينية في تلك الفترة الذي كان يؤمن أنه لا خلاص بالأعمال، لكنه لم يكن يجاهر بهذا الأمر ربما خوفاً على منصبه أو لرغبته في إحداث التأثير بصورة هادئة دون لفت الأنظار إليه. وقال لوثر نفسه عن هؤلاء: "إذ لم يجد هؤلاء في نفوسهم أية أعمال صالحة يمكن أن تقف أمام غضبِ الله ودينونته، فإنهم لجأوا إلى موت المسيح وآلامه لأجلهم، وخلصوا بهذا الإيمان البسيط."

وكمحصلة نهائية ومنطقية لكل هذه الصراعات والمشاهدات والدراسات والتبصرات التي ألمت بمارتن لوثر من كل اتجاه، كانت الخطوة الشُّجاعة التي أقدم عليها الراهب الثائر بتعليق بنوده الخمس والتسعين على باب كاتدرائية وتنبرج في 31 أكتوبر 1517 الموافق للاحتفال بعيد جميع القديسين. وتضمنت هذه الوثيقة إشارات عديدة لمبدأ التبرير بالإيمان دون تصريح مباشر بالمصطلح نفسه، ومن بين تلك الإشارات الفقرة التالية من البند السادس:

> ويجب على المرء الذي يَنشُد الحلّ أن يتحذّر بشدّة من أي شك في أن الله قد محا خطاياه. ولكن إذ هو مجبر على التقيّد بحكم إنسان آخر، عليه أن يتيقّن بأن ما حصل عليه ليس بسبب الأسقف أو الكاهن مطلقاً، لا بسبب شخصه ولا رتبته، بل بسبب كلمة المسيح المنزّه عن الكذب حينما يقول: "كل ما تربطه على الأرض... وكل ما تحله على الأرض..." (متى 16 : 19). فالإيمان الذي ينبع من هذه الكلمة هو الذي يؤاتي الضمير السلام، لأن الكاهن يمنح الحلّ وفقاً لكلمة المسيح فقط. وأما كل من ينشد السلام على سبيل أخرى، مثالاً على ذلك، على سبيل الاعتراف العلني، أو حتى على سبيل الحصول على مليون عفو من البابا نفسه، فإنه يحاول أن يجرب الله . لأنك لن تعرف السلام

٢٣ فايز فارس، مارتن لوثر: شرارة إصلاح أضاءت الفكر والتاريخ، مجلة الهدى، العدد 762، السنة 73، ديسمبر 1983، ص 24.

الداخلي إلاّ إذا آمنت بوعد ذاك الذي قال: "كل ما تحلّه..." إن المسيح هو سلامنا، وسلامنا بالإيمان به فقط. (هنا يورد لوثر أمثلة من الكتاب المقدس). قال المسيح لسمعان (الفريسي الذي دعاه الى بيته) عن المرأة الخاطئة، وربما كانت مريم المجدلية في لوقا 7: 47: "قد غُفرت خطاياها الكثيرة"، وبالتأكيد عنى بما قاله أنها قد حصلت على النعمة، لكنها لم تُدرك انسكاب النعمة لأنه لم يكن سلام ولا صحة في عظامها بسبب خطاياها، إلى أن التفت يسوع اليها وقال (لوقا 7: 48): "مغفورة لك خطاياك". وفي العدد الذي يتبع يقول: "إيمانك قد خلصك." أي ذلك الإيمان وتلك الثقة الثابتة بذاك الذي غفر خطاياها. وعلى وجه التعميم، كيف كان بإمكان شعب العهد القديم أن يثقوا برحمةِ الله وبمحو الخطايا لو لم يُظهر الله لهم بالرؤيا والوحي وذبائح المحرقات والسحابة وأمور أخرى أنه راضٍ عن تقدماتهم. إنه يرغب في أن يحقق هذا الأمر عينه عن طريقِ كلمةِ الكهنة وحكمهم.
ويُمكن تلخيص هذه القاعدة بالعبارات التالية: لن نكون واثقين من محو الخطية إلاّ من خلال حكم الكاهن شريطة أن نؤمن بالمسيح الذي وعد: "كل ما تحله..." (مت 16: 19). وعندما لا نكون واثقين لا يكون هناك الغفران، بل الهلاك. لذلك يُنشئ الغفران الإلهي النعمة، ويؤاتي غفران الكاهن السلام، وكلاهما نعمة الله وهبته، لأن الإيمان هو الكامن في الغفران والنعمة معاً وفعلياً."

وقد أكد المصلحون بعد ذلك نفس الفكرة، فنرى جون كالڤن في كتاب المبادىء يقول: "الإيمان كافٍ في حد ذاته، بمعنى أنه لا يوجد أساس مزدوج من الإيمان والأعمال الصالحة، فنحن نستند على محبة الله ورحمته وحدها."[٢٤]

توضيح لابد منه

كانت هذه العقيدة، التبرير بالإيمان، واحدة من العقائد الكتابية التي لم يختلف عليها اثنان من المصلحين، ولا يختلف عليها اثنان من البشر الذين يتبنون مبادىء الإصلاح الإنجيلي الغنية، بل إن النص الكتابي الشهير في أف 2: 8، 9 "لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَالٍ كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ" تأتي فيه كلمة "ذلك" في اليونانية (Τουτο) في صيغة المحايد لكي تشير إلى النعمة والإيمان معاً كهبة من الله. فالإيمان كذلك هو عطية يقدمها الله للإنسان من أجل خلاصه. لكننا لا ريب نأخذ توجهاً غير كتابي عندما نقول إن الإنسان لا دور له بتاتاً فيما يتعلق بقضية الخلاص، فالإيمان بالمسيح للإنسان دور فيه. فالإنسان هو الذي يؤمن، يأخذ خطوة الإيمان، يستخدم عطية الله له، التي هي الإيمان، ليضع ثقته فيما عمله المسيح من أجله. نعم، فالله هو مدبر الخلاص من أوله إلى آخره، لكن الإنسان عليه أن يقرر قبول هذا الخلاص بالإيمان الممنوح له من الله أو يرفضه ليظل في حياته القديمة المأسورة في الخطية. وهذا ما نسميه "مسؤولية الإنسان"، وهو أمر لا يمكن إغفاله لأنه يرتبط بكون الإنسان مخلوقاً حراً على صورةِ الله كشبهه. كَمَا "آمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرّاً" (غل 3: 6). وأيضًا "لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ خَلَصْتَ. لأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ وَالْفَمَ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلاَصِ" (رو 10: 9، 10).

---

٢٤ جون كالفن، مسيحية الكتاب المقدس: خلاصة مختصرة ومبسطة لكتاب مبادىء الحياة المسيحية، ترجمة عبد الكريم كيرلس، الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط، 2002، ص 86.

قضايا عملية/ رعوية

(1) مبدأ "الإيمان وحده"

يضع أمامنا قضية وجوب التفكير في الزمان الصعب. إنه يضع أمامنا مرة أخرى فلسفة الإصلاح، أن تصلح الكنيسة نفسها بنفسها، وألا تترك الكنيسة نفسها لتعاليم مضادة لروح الإنجيل، على أن يتم هذا في روح الاتضاع والرغبة في التغيير نحو الأفضل. لقد كان شعار مارتن لوثر الذي ارتبط بمبادىء الإصلاح جميعها هو أننا مبررون وخطاة في نفس الوقت: Simul Justus et Peccator، وبالتالي كانت هناك تلك الرغبة في استمرارية الإصلاح مع وجود روح الاتضاع ومخافة الرب والخضوع له.

(2) مبدأ "الإيمان وحده"

يضع أمامنا قضية الاستقامة السلوكية والأخلاقية لخدام الرب. فجزء من ثورة لوثر كانت بسبب انحراف رجال الدين السلوكي والأخلاقي الذي دفعهم لمحاولة تطويع تعاليم الكتاب المقدس لخدمة أغراضهم الدنيئة والشريرة. وقد وصف واحد من رواد الإصلاح وهو إرازموس هذه الانحرافات الأخلاقية، فكتب يقول:

> "إن الحرب التي يقوم بها البابوات ضد الذين يستولون على أرضهم تخالف روح المسيح، والمسيح الذي جاء ليعطي سلامه للأرض لا يحتاج إلى المَدافع. فكم يكون غضبه وهو يرى المَدافع تحمل أسماء قديسيه بولس وبطرس؟؟"[٢٥]

(3) مبدأ "الإيمان وحده"

يساعدنا على إعادة النظر في عبادة الكنيسة المعاصرة. فهذا المبدأ من المفترض به أن يجعل مركز العبادة هو شخص الرب يسوع الذي بالإيمان به فقط ينال الإنسان الخلاص، وبالتالي ينبغي أن يكون فعل العبادة متمحوراً حوله. لقد كانت ترنيمات العهد الجديد التي نشأت في البداية كترانيم تعبدية في الكنيسة الأولى تتمحور جميعها حول عمل وشخصية المسيح وليس حول أي شيء أو شخص آخر (على سبيل المثال: فيلبي 2: 6- 11؛ كولوسي 1: 15-23؛ 1 تيموثاوس 3: 16؛ عبرانيين 1: 1-3؛ رؤيا 5: 6-14... إلخ)

(4) مبدأ "الإيمان وحده"

يعيدنا مرة أخرى إلى الوعي بأهمية الوعظ الكرازي في برامج عبادتنا. لقد كان لوثر راهباً متبتلاً ومكرساً دون أن تكون له علاقة قلبية صحيحة مع الله بالإيمان. وكم من أناس يحضرون إلى كنائسنا ليحضروا عبادتنا دون أن يتمتعوا بخلاص المسيح وعمله الكفاري. ولذا، فمن الخطر جداً أن نظن أن كل من يحضرون إلى الكنيسة، خاصةً الذين يترددون عليها منذ زمن طويل قد اختبروا جميعاً الإيمان والتجديد بعمل المسيح. لأن هذا الاعتقاد ليس صحيحاً دائماً، وبالتالي على الراعي أن يحرص على أن يحمل جزء من وعظه اللمحة الكرازية.

٢٥ بينتون، مرجع سابق، ص 104.

(5) مبدأ "الإيمان وحده"

له مردود رعوي وسلوكي على طريقة تعاملنا مع من نعيش ونخدم معهم ونخدمهم. من الوجهة الرعوية أرى أن كثيراً من تعاملاتنا مع من نخدمهم أو نخدم معهم تميل أكثر إلى مبدأ "الأعمال" وليس مبدأ "النعمة/الإيمان"، بمعنى أن هناك شروطاً، ربما غير معلنة، لقبول الناس في شركة الكنيسة (الوضع الاجتماعي، المساهمة المادية، الإنجاز العملي في الخدمة، التاريخ الأسري، القرب من مزاج وميول الراعي)، وغيرها من الحيثيات التي أضحت شروطاً وضعناها بقصد أو بدون لقبول ومحبة وخدمة الناس. أما مبدأ "الإيمان وحده" فإنه يعود بنا إلى محبة الأجابي، محبة الله غير المشروطة في تعامله معنا.

(6) مبدأ "الإيمان وحده"

يمتد ليشمل كل أزمات الحياة الصعبة والخانقة التي يعيشها المؤمن في كل حياته. وينبغي علينا كرعاة المناداة بأهمية الإيمان (الإخلاص/الأمانة لله) في وسط كل هذه الظروف. فالإيمان ليس بأن يرفع الله هذه الظروف، ولكن الإيمان هو التمسك بالله والإخلاص له في وسط هذه الظروف..

"فَإِذْ لَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ ثِقَةٌ بِالدُّخُولِ إِلَى «الأَقْدَاسِ» بِدَمِ يَسُوعَ، طَرِيقاً كَرَّسَهُ لَنَا حَدِيثاً حَيّاً، بِالْحِجَابِ، أَيْ جَسَدِهِ، وَكَاهِنٌ عَظِيمٌ عَلَى بَيْتِ اللهِ، لِنَتَقَدَّمْ بِقَلْبٍ صَادِقٍ فِي يَقِينِ الإِيمَانِ، مَرْشُوشَةً قُلُوبُنَا مِنْ ضَمِيرٍ شِرِّيرٍ، وَمُغْتَسِلَةً أَجْسَادُنَا بِمَاءٍ نَقِيٍّ. لِنَتَمَسَّكْ بِإِقْرَارِ الرَّجَاءِ رَاسِخاً، لأَنَّ الَّذِي وَعَدَ هُوَ أَمِينٌ... وَلَكِنْ تَذَكَّرُوا الأَيَّامَ السَّالِفَةَ الَّتِي فِيهَا بَعْدَمَا أُنِرْتُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى مُجَاهَدَةِ آلاَمٍ كَثِيرَةٍ. مِنْ جِهَةٍ مَشْهُورِينَ بِتَعْيِيرَاتٍ وَضِيقَاتٍ،وَمِنْ جِهَةٍ صَائِرِينَ شُرَكَاءَ الَّذِينَ تُصُرِّفَ فِيهِمْ هَكَذَا. لأَنَّكُمْ رَثَيْتُمْ لِقُيُودِي أَيْضاً، وَقَبِلْتُمْ سَلْبَ أَمْوَالِكُمْ بِفَرَحٍ، عَالِمِينَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنَّ لَكُمْ مَالاً أَفْضَلَ فِي السَّمَاوَاتِ وَبَاقِياً. فَلاَ تَطْرَحُوا ثِقَتَكُمُ الَّتِي لَهَا مُجَازَاةٌ عَظِيمَةٌ. لأَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى الصَّبْرِ، حَتَّى إِذَا صَنَعْتُمْ مَشِيئَةَ اللهِ تَنَالُونَ الْمَوْعِدَ.

عب 10: 19-23، 32-36

القس يوسف سمير رئيس مجلس إدارة كلية اللاهوت الإنجيلية، وراعي كنيسة مصر الجديدة الإنجيلية